

اعجاز قرآن

درس هفدهم

استاد : حجت الاسلام و المسلمین صادق نیا

آموزشیار : سرکار خانم حیدری

شواهد من القرآن

دقائق ونكات رائعة :

تلك كانت نبذة من فوارق اللغة ، وقبضة يسيرة من مزايا جمّة غفيرة ، حظى بها لسان ال عرب فى القريض والخطاب ، وكانت بها بلاغة البلغاء فائقة ، وفصاحة الفصحاء رائعة ، وامتناز كلام على كلام ، وقصيدة على أختها ، دلالة على سعة الاطلاع بمزايا اللغة ، ومبلغ الإحاطة بفوارق الأوضاع .

وقد امتاز القرآن فى هذا الجانب بما فاق سائر الكلام ، وأعجز العرب أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، وإليك رشفة من ذلك البحر الخضمّ ، ورشحة من ذلك الوابل الغزير .

تقديم السمع على البصر :

ومن دقيق تعبيره ، أنك تجد القرآن يذكر السمع مقدّماً على البصر فى عديد من الآيات ^١ (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ^٢ ، وهى مسألة يعرف سرّها الآن علماء التشريح (الفسيولوجيا) ويُدركون أن جهاز السمع أرقى وأعقد وأدقّ وأرهف من جهاز الأبصار ، ويمتاز عّليه بإدراك المجرّدات كالموسيقى ، وإدراك التداخل مثل حلول عدة نغمات داخل بعضها بعضاً ، مع القدرة على تمييز كلّ نغمة على انفراد ، كما تُميّز الأمّ صوتَ بكاء ابنها من بين زحام هائل من أصوات متداخلة ، يتمّ هذا فى لحظة زمن ... أمّا العين فهى تتوه فى زحام التفاصيل ولا تعثر على ضالّتها ، يتوه الابن عن عين أمّه فى الزحام ولا يتوه عن سمعها .

^١ فى أكثر من خمسة وعشرين موضعاً : البقرة : ٧ و ٢٠ ، النساء : ٥٨ و ١٣٨ ، الأنعام : ٤٦ ، يونس : ٣١ ، هود : ٢٠ ، النحل : ٧٨ و ١٠٨ ، الإسراء : ١ و ٣٦ ، طه : ٤٦ ، الحجّ : ٦١ و ٧٥ ، المؤمنون : ٢٣ ، لقمان : ٢٨ ، السجدة : ٩ ، غافر : ٢٠ و ٥٦ ، فصلّت : ٢٠ و ٢٢ ، الشورى : ١١ ، الأحقاف : ٢٦ ، المجادلة : ٥٨ ، الملك : ٢٣ ، الإنسان : ٢ .
^٢ النحل : ٧٨ .

والعلم يمدنا الآن بألف دليل على تفوق معجزة السمع على معجزة البصر ، ولم يكن هذا العلم موجوداً أيام نزول القرآن)
سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ^١ ، وهذا تحدٍّ بمستقبل الأيام سوف يُصادف على آيات ما زالت تُقرأ وهي غيوب محجّبة .

إنّهُ الانضباط والإحكام في كلّ لفظة وفي كلّ حرف ، لا تتقدّم كلمة على كلمة إلّا بسبب ، ولا تتأخّر كلمة عن كلمة إلّا بسبب ،
فما هذا الإصرار على تقدّم السمع

على البصر في تعبير القرآن ؟ إنه تكرار متعمّد برغم أنّ النظرة العامّة إلى الأمور تنظر إلى البصر بإجلال أكثر ^٢ .
آيتا السرقة والزنا :

وهو حينما يذكر السرقة نراه يُورد السارق مقدّماً على السارقة (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) ^٣ ، أما في الزنا فنراه يذكر الزانية مقدّمة على الزاني (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ) ^٤ ، والحكمة واضحة ، فالمرأة في الزنا هي البادئة وهي التي تدعو الرجل ، بزینتها وتبرّجها ، أمّا في السرقة فهي أقلّ جرأة من الرجل .

إننا إذاً أمام كلمات مصفوفة بإحكام ودقة وانضباط (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) ^٥ .
ليس كمثله شيء :

ومن دقيق تعبيره : قوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ^٦ .

زعموا زيادة الكاف هنا ، فراراً من المحال العقلي ؛ إذ لو كانت باقيةً على أصلها للزم التسليم بثبوت المثل !
وحاول بعضهم توجيه عدم الزيادة ، بأنّه من الدلالة على المطلوب بلازم الكلام ، حيث نفى مِثْل المِثْل يستلزم نفى المِثْل ؛ إذ لو كان له مِثْل لكان لمثله أيضاً مثل ، وهو الله تعالى ، تحقيقاً لقضية التماثل .

^١ فصلت : ٥٣ .

^٢ محاولة لفهم عصري : ص ٢٥١ .

^٣ المائدة : ٣٨

^٤ النور : ٢

^٥ هود : ١ .

^٦ الشورى : ١١

فهو نفى للمثل بهذه الطريق الملتوية ، نظير قولهم : أنت وابن أخت خالتك ، يُعدّ

نوعاً من التعمية في الكلام شبيهاً بالألغاز .. الأمر الذي تأباه طبيعة الجدّ في تعابير القرآن.

ولكن لتوجيه هذا الكلام تأويل مشهور :

لو قيل : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) كان المنفى هو المماثل له تماماً وفي جميع أوصافه ونعوته وخصوصياته الكلية وا لجزئية ، أى ليس على شاكلته التامة شيء ، وهذا يؤهم أن عسى قد يوجد مَنْ يكون على بعض أوصافه ، وفي رتبة تالية من المماثلة التامة ؛ لأنّ هذا المعنى لم يقع تحت النفي .

وعليه فكان موضع الكاف هنا ، نفيّاً للمماثلة وما يشبه المماثلة أو يدنو منها بعض الشيء ، فليس هناك شيء يشبه أن يكون مماثلاً له تعالى ، فضلاً عن أن يكون مثلاً له على الحقيقة ، وهذا من باب التنبيه بالأدنى دليلاً على الأعلى ، على حدّ قوله تعالى : (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا)^١ .

وتأويل آخر أدق : وهو أنّ الآية لا ترمى نفى الشبيه له تعالى فحسب ، إذ كان يكفي لذلك أن يقول : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ، أو (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) بل ترمى وراء ذلك دعم النفي بما يصلح دليلاً على الدعوى والإلفات إلى وجه حجة هذا الكلام وطريق برهانه العقلي .

ألا ترى أنّك إذا أردت أن تنفى نقيصة عن إنسان ، فقلت : (فلان لا يكذب) أو (لا يبخل) كان كلامك هذا مجرد دعوى لا دليل عليها ، أمّا إذا زدت كلمة المثل وقلت : (مثل فلان لا يكذب) أو (لا يبخل) فكأنّك دعمت كلامك بحجّة وبرهان ، إذ من كان على صفاته وشيمه الكريمة لا يكون كذلك ؛ لأنّ وجود هذه الصفات والنعوت ممّا تمنع عن الاستس قال إلى رذائل الأخلاق .

وهذا منهج حكيم وضع عليه أسلوب كلامه تعالى ، وأنّ مثله تعالى - ذا الكبرياء والعظمة - لا يمكن أن يكون له شبيه ، وأنّ

الوجود لا يتسع لاثنتين من جنه^٢

^١ الإسراء : ٢٣

^٢ النبأ العظيم : ص ١٢٨

فجىء بأحد لفظي التشبيه ركناً في الدعوى ، وبالأخر دعامة لها وبرهاناً عليها ، وهذا من جميل الكلام ، وبديع البيان ، ومن الوجيز الوافي .

قال الزمخشري : قالوا : مثلك لا يبخل ، فنفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية ؛ لأنهم إذا نفوه عمّن يسدّ مسدّه وعمّن هو على أخصّ أوصافه فقد نفوه عنه ، وهذا أبلغ من قولك : أنت لا تبخل.

ومنه قولهم : (قد أيفعت لدّاته)^١ و (بلغت أترابه)^٢ ، وفي الحديث : (ألا وفيهم الطيّب الطاهر لدّاته) ، وهذا ما تعطيه الكناية من الفائدة.^٣

وقال ابن الأثير : ومن لطيف هذا الموضع وحسنه ما يأتي بلفظة (مثل) ، كقول الرجل إذا نفى عن نفسه القبيح : (مثلى لا يفعل هذا) أى أنا لا أفعله ؛ لأنه إذا نفاه عمّن يماثله فقد نفاه عن نفسه لا محالة ، إذ هو بنفى ذلك عنه أجدر ، وسبب ورود هذه اللفظة في هذا الموضع أنّه يُجعل من جماعة هذه أوصافهم وتثبيتاً للأمر وتوكيداً ، ولو كان وحده لقلق م نه موضعه ولم يرس فيه قدمه .^٤

قال الأستاذ درّاز : واعلم أنّ البرهان الذي تُرشد إليه الآية - على هذا الوجه -^٥ برهان طريف في إثبات الصانع لا نعلم أحداً من علماء الكلام حام حوله ، فكلّ براهينهم في الوحدانية قائمة على إبطال التعدّد بإبطال لوازمه وآثاره العملية ، حسبما أرشد إليه قوله تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)^٦

أمّا آية الشورى المذكورة فإنّها ناظرة إلى معنى وراء ذلك ، ينقض فرض التعدّد من أساسه ويُقرّر استحالتة الذاتية في نفسه بقطع النظر عن تلك الآثار ،

^١ أيفع الغلام : ترعرع وناhez البلوغ ، فهو يافع ، واللدّ : القرن والخصم .

^٢ الأتراب : جمع ترب بمعنى المتوافق في السنّ

^٣ تفسير الكشاف : ج ٤ ص ٢١٣

^٤ المثل السائر : ج ٣ ص ٦١ ذكره في باب الإرداف في الكناية

^٥ أى إرداف اللفظ بحجته في أوجز كلام .

^٦ الأنبياء : ٢٢

فكأننا بها تقول لنا :

إن حقيقة الإله ليست من تلك الحقائق التي تقبل التعدّد والاشتراك والتماثيل في مفهومها ، كلاً ، فإنّ الذي يقبل ذلك فإنّما هو الكمال الإضافي الناقص ، أمّا الكمال التام المطلق - الذي هو معنى الإلهية - فإنّ حقيقته تأبى على العقل أن يقبل فيها المشابهة والاثنيّة ؛ لأنك مهما حققت معنى الإلهية حققت تقدّماً على كلّ شيء وإنشاء لكل شيء : (فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)^١ ، وحققت سلطاناً على كلّ شيء وعلوّاً فوق كلّ شيء : (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)^٢ ، فلو ذهبت تفترض اثنين يشتركان في هذه الصفات لتناقضت إذ تجعل كلّ واحد منهما سابقاً ومسبقاً ، ومُنشئاً ، ومنشئاً ، ومستعلياً ومستعلًى عليه ، أو لأحلت الكمال المطلق إلى كمال مقبّد فيهما ، إذ تجعل كلّ واحد منها بالإضافة إلى صاحبه ليس سابقاً ولا مستعلياً ، فأنتى يكون كلّ منهما إلهاً ، ولإله المثل الأعلى !

فكم أفادتنا هذه الكاف من وجوه المعانى كلّها كافٍ شافٍ ، وهذا من دقة الميزان الذي وُضع عليه النظم الحكيم في القرآن الكريم.^٣

آية القصاص :

كانت العرب تعرف ما لهذه اللفظة (القصاص) من مفهوم خاص : (قَتْلُ مَنْ عَدَّ عَلَى غَيْرِهِ فَقَتَلَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ) ، وكلنت تعرف ما لهذه العقوبة (مقابلة المعتدى بمثل ما اعتدى) من أثر بالغ في ضمان الحياة العامّة .

لكنّها عندما عمّدت إلى وضع قانون يحدّ من جريمة القتل ، ويضمن للناس حياتهم ، وليكون رادعاً لمن أراد الإجرام فأزمعت بكليتها على وضع عبارة موجزة وافية بهذا المقصود الجلل وأجمعت آراؤهم على عقد الجملة التالية :

(القتل أنفى للقتل) ، غفلت عن لفظة (القصاص) واستعملت كلمة (القتل) مكانها ، ذهولاً عن أنّها لا تفي بتمام المقصود ، وهم بصدد الإيفاء والإيجاز .

^١ الأنعام : ١٤ ، يوسف : ١٠١ ، إبراهيم : ١٠ ، فاطر : ١ ، الزمر : ٤٦ ، الشورى : ١١ .

^٢ الزمر : ٦٣

^٣ النبأ العظيم : ص ١٣٠

ذلك أن الذي يحدّ من الإجرام على النفوس ويحقن دماء الأبرياء هو فرض عقوبة القصاص ، وهو قتل خاص ، وليس مطلق القتل بالذى يؤثر في منعه ، بل ربّما أوجب قتلات إذا لم يكن قصاصاً .

ومع الإحاطة بهذه المزايا في لفظ (القصاص) جاء قوله تعالى : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)^١ تعبيراً تاماً وافياً بالمقصود تمام الوفاء ، بل وفيها زيادة مزايا شرحها أرباب الأدب والتفسير .

قال سيّدنا الطباطبائي - طاب ثراه - : إنّ هذه الآية - على اختصارها وإيجازها ، وقلة حروفها ، وسلاسة لفظها ، وصفاء تركيبها - لهى من أبلغ التعابير وأرقى الكلمات ، فهى جامعة بين قوّة الاستدلال وجمال المعنى ولطفه ، ورقّة الدلالة وظهور المدلول . وقد كان للبلغاء قبلها كلمات وتعابير فى وضع قانون القصاص ، كانت تعجبهم بلاغتها وجزالة أسلوبها ، كقولهم : (قُتِلَ البعض إحياء للجميع) ، وقولهم : (أكثروا القتل ليقُلّ القتل) وأعجب من الجميع عندهم قولهم : (القتل أنفى للقتل) .

غير أن الآية أنست الجميع ، ونفت الكل ، (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) فهى أقلّ حروفاً وأسهل تلفظاً ، وفيها تعريف القصاص وتنكير الحياة ، دلالة على أن الهدف الأقصى أوسع من أمر القصاص وأعظم شأنًا ، وهى الحياة ، حياة الإنسان الكريمة . واشتملها على بيان النتيجة وعلى بيان الحقيقة ، وأن القصاص هو المؤدّى إلى الحياة ، دون مطلق القتل ، وغير ذلك ممّا تشتمل عليه من فوائد ولطائف ...^٢

هذا بالإضافة إلى ما لتعبير القرآن من محسّنات بديعية باهرة ، ليست فى ذلك التعبير العربى .

قال ابن الأثير : من الإيجاز ما يُسمّى الإيجاز بالقصر ، وهو الذى لا يُمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها ، وفى عدّها ، بل يستحيل ذلك ، وهو أعلى طبقات الإيجاز مكاناً ، وإذا وُجد فى كلام بعض البلغاء فإنما يوجد شاذّاً نادراً ، والقرآن الكريم ملآن منه^٣ .

فمن ذلك ما ورد من قوله تعالى : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) .

^١ البقرة : ١٧٩

^٢ تفسير الميزان : ج ١ ، ص ٤٤٢

^٣ المثل السائر : ج ٢ ص ٣٤٨ وص ٣٥٢ - ٣٥٣

فإنَّ قوله تعالى : (الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) لا يُمكن التعبير عنه إلَّا بألفاظ كثيرة ؛ لأنَّ معناه أنَّه إذا قُتل القاتل امتنع غيره عن القتل ، وكذلك إذا أيقن القاتل أن سوف يدفع حياته ثمناً لحياة مَنْ يقتل ، تردّد في ار تكاب القتل وربّما أمسك عنه ، فكان في ذلك حياة للناس .

ولا يُلتفت إلى ما ورد عن العرب من قولهم : (القتل أنفى للقتل) ، فإنَّ مَنْ لا يعلم يظنُّ أنَّ هذا على وزن الآية ، وليس كذلك ، بل بينهما فرق من ثلاثة أوجه :

الأوّل : أنَّ (القصاص حياة) لفظتان ، و (القتل أنفى للقتل) ثلاثة ألفاظ .

الثاني : أنَّ في قولهم (القتل أنفى للقتل) تكريراً ليس في الآية .

الثالث : أنَّه ليس قتل نافياً للقتل ، إلَّا إذا كان على حكم القصاص .

قال : وقد صاغ أبو تمام هذا المعنى الوارد عن العرب في بيت من شعره ، فقال :

وَأَخَافُكُمْ كَيْ تَعْمِدُوا أَسْيَافَكُمْ إِنَّ الدَّمَ الْمُعْتَرَّ يَحْرُسُهُ الدَّمُ^١

فقوله : (إِنَّ الدَّمَ الْمُعْتَرَّ يَحْرُسُهُ الدَّم) أجمل أسلوباً وأحسن أداءً من قوله العرب .

وقال أبو هلال العسكري : والإيجاز ، القصر والحذف ، فالتقصير لتقليل الألفاظ وتكثير المعاني وهو قول الله عزّ وجلّ : (وَلَكُمْ فِي

الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) ، ويتبيّن فضل هذا الكلام إذا قرّنته بما جاء عن العرب في معناه ، وهو قولهم : (القتل أنفى للقتل) فصار لفظ

القرآن فوق هذا القول ، لزيادته عليه في الفائدة ، وهو إبانة العدل لذكر

القصاص ، وذكر العوض المرغوب فيه لذكر الحياة واستدعاء الرغبة والرغبة لحكم الله به ، وإيجازه في العبارة ، فإنّ الذي هو

نظير قولهم (القتل أنفى للقتل) إنّما هو (القصاص حياة) وهذا أقلّ حروفاً من ذلك ، ولبعده من الكلفة بالتكرير ، ولفظ القرآن

برئى من ذلك ، وبحسن التأليف ، وشدة التلاؤم المُدرَك بالحسّ ؛ لأنّ الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام

إلى الهمزة^٢ .

^١ ديوان أبي تمام : ص ٢٧٤ . والمعتَرّ : المضطرب لخوف الخطر

^٢ انظر الصناعتين : ص ١٧٥ ، وهامش المثل السائر : ج ٢ ص ٣٥٢ - ٣٥٣

وقال جلال الدين السيوطي : وقد فضّلت الآية على قولة العرب بعشرين وجهاً أو أكثر ، وإن كان لا تشبيه بين كلام الخالق

وكلام المخلوق ، وإنّما العلماء يقدحون أفهامهم فيما يظهر لهم من ذلك ، كما قال ابن الأثير ، نذكر منها :

١ - فى الآية إيجاز قصر ، من غير حاجة إلى تقدير ، أمّا قولتهم فبحاجة إلى تقدير (من) لمكان أفعال التفضيل ، وبذلك جاء

الإيهام فى قولتهم ؛ لأنّه يسأل : من أىّ شيء ؟ فإن قُدّر العموم فلعلّه غير مطّرد بالنسبة إلى جميع الموارد وجميع أفراد الناس .

٢ - ثمّ الذى ينفى القتل ويوجب الحياة هى شريعة القصاص ، وهو قتل بإزاء قتل خاصّ دون مطلق القتل ، إذ ربّ قتلة أوجبت

قتلات كما فى حرب البسوس طالت أربعين سنة .

٣ - فى الآية طباق ، جمعاً بين ضدّين : القصاص - وفيه إشعار بقتل - والحياة ، وأيضاً فيها بئاعة ، الضدّ أوجب ضده . ولا سيّما

فى تعريف القصاص وتنكير الحياة ، وفيه غرابة فائقة .

٤ - قال الزمخشري : ومن إصابة محزّ البلاغة ، بتعريف القصاص وتنكير الحياة ؛ لأنّ المعنى : ولكم فى هذا الجنس من الحكم

- الذى هو شريعة القصاص - حياة عظيمة ، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة ، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب ، حتّى كاد

يُفنى بكر بن وائل ، ولقد كانوا يقتلون بالمقتول غير قاتله ، وهذه

العادة جارية بين العرب حتّى الآن^١ ، فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر ، ففى شرع القصاص - وهو قتل القاتل المعتدى - حياة أيّة

حياة^٢ .

٥ - وأمّا قولة العرب ، ففيها تناقض ظاهر ؛ إذ الشئ لا ينفى نفسه ، فكيف القتل ينفى القتل ؟ وأيضاً فيها تكرار ، وتقدير ،

وتهويل بسبب تكرار لفظ القتل المؤذن بالوحشة .

أمّا الآية فاستبدلت من لفظ (القتل) الموحش بلفظ (القصاص) الموجب للتشفّى والانشراح ، ثمّ عقّبها بلفظ (الحياة) التى

تبتهل إليها النفوس وتحتفل بها .

٦ - وأيضاً ففى لفظ القصاص إيدان بالعدل ، حيث مساواة نفس المقتول بالقاتل ، الأمر الذى لا يدلّ عليه لفظ القتل المطلق .

^١ ونحن فى مطلع القرن الخامس عشر للهجرة

^٢ راجع الكشف : ج ١ ص ٢٢٢ - ٢٢٣

٧ - والآية بُنيت على الإثبات ، وقولتهم على النفي ، والكلام المُثبت أوفى من النافي مهما كان المعنى واحداً .

٨ - ثمَّ إشكال في ظاهر قولتهم ، ببناء أفعَل التفضيل من فعل عدَمى الذى لا تفاضل فيه ظاهراً ، والآية سالمة منه .

٩ - وأيضاً فإنَّ التفاضل يقتضى المشاركة فى القدر الجامع ، بخلاف الآية التى حصرت نفي القتل فى القصاص لا فى غيره على الإطلاق ، فكانت أبلغ فى الوفاء بالمقصود .

١٠ - الآية مشتملة على حروف متلائمة متناسقة ، تتحلّق صُعُداً ، ثمَّ تهوى نُزْلاً ، ثمَّ تعود فتتصاعد إلى ما لا نهاية (فى القصاص حياة) .

قالوا : لتلاؤم القاف مع الصاد ، كلاهما من حروف الاستعلاء ، أمّا القاف مع التاء فلا تلاؤم بينهما ؛ لأنَّ التاء من المنخفض ، وكذا الخروج من الصاد إلى حاء الحياة أمكن من الخروج من اللام إلى الهمز ، لبُعد طرف اللسان عن أقصى الحلق .
وأيضاً ففى النطق والحاء والتاء متتالية ظرافة وحسن ، ولا كذلك فى تكرار النطق بالقاف والتاء .

١١ - هذا فضلاً عن توالى حركات متناسبة فى الآية ، بما يَسرُّ النطق بها فى سهولة ، وربّما فى جرس صوتيّ بديع .
أمّا قولتهم فيتعقّب فيها كل حركة بسكون ، وذلك مستكره ، ويوجب عسر النطق بها ، إذا الحركات - وهى انطلاقات اللسان - تنقطع بالسكنات المتتالية ، الموجبة للضجر ووعورة الكلام ، نظير ما إذا تحرّكت الدابة أدنى حركة فجثت ، ثمَّ تحرّكت فجثت ، وهكذا لا يبين انطلاقتها ولا تتمكن من حركتها على إرادتها ؛ لأنّها كالمقيّدة .

١٢ - إنَّ فى افتتاح الآية بـ (لكم) مزيد عناية بحياة الإنسان ، وإنَّ فى شريعة القصاص حكمة بالغة ترجع فائدتها إلى النفع العام ، فهى عامّة رُوِعت فى شرع القصاص ، وليست مصلحة خاصّة ترجع إلى شرح صدور أولياء المقتول المفجوعين فحسب .
وغير ذلك ممّا ذكره نقّدة الكلام ، لا زالت مساعيهم مشكورة^١ .

أرض هامدة وأرض خاشعة :

تعبيران وردا على الأرض الميتة فقدت حياتها ؛ لأنَّ السماء ضنّت بمائها فلم تمطر عليها ... فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربّت وأنبتت من كلّ زوج بهيج !

^١ راجع معترك الأقران لجلال الدين السيوطى : ج ١ ص ٣٠٠ - ٣٠٣

فقد جاء التعبير الأول في سورة الحج : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مَّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرَّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ

بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْتَبَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ^١ .

وجاء التعبير الثاني في سورة فصلت : (وَمِن آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ * وَمِن آيَاتِهِ أَنَّا تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِن الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْهَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ^٢ .

أما لماذا هذا الاختلاف في التعبير في المقامين ؟

الجوِّ في السياق الأول جوّ بعث ونشور وحشر أموات ، فيتناسب معه تصوير الأرض (هامدة) لا حياة فيها ولا حركة ولا انتفاضة .

يقال : همدت النار أي خمدت وأطفئت وهدأت حرارتها وسكن لهيبها ، وحمد الثوب : إذا بلى وتقطع من طول البلى .

لكن الجوِّ في السياق الثاني جوّ عبادة وضراعة وخشوع وابتهاال إلى الله تعالى ، فناسبه تصوير الأرض (خاشعة) خشوع الذل والاستكانة . يقال : خشعت الأرض إذا يبست ولم تمطر .

ونكتة أخرى : لم تجيء (اهتزت وربت) هنا للغرض الذي جاءتا من أجله هناك ، إنهما هنا تخیلان حركة حاصلة عن خشوع ،

حركة بضاهي حركة العبادة في عباداتهم ؛ ومن ثم لم تكن الأرض لتبقى وحدها خاشعة ساكنة ، فاهتزت لتشارك العابدين في

حركاتهم التعبدية وفق إرادة الله في الخلق . الحلف بالتاء :

قوله تعالى : (تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً) ^١ . جملة ألفاظها غريبة ، بعيدة عن الاستعمال العام ، وقع الاختيار عليها

لحكمة هي مقتضى الحال والمقام ، فضلاً عن جرس اللفظة في هذا التناسب والوئام .

^١ الحج : ٥

^٢ فصلت : ٣٧ - ٣٩ .

قال جلال الدين السيوطي : أتى بأغرب ألفاظ القسم ، وهي التاء ، فإنها أقل استعمالاً وأبعد من أفهام العامة بالنسبة إلى ا لباء والواو ، وبأغرب صيغ الأفعال الناقصة ، فإنّ (تزال) أقرب إلى الأفهام ، وأكثر استعمالاً من (تفتأ) ، وبأغرب الألفاظ الدالة على الإشراف على الهلاك (حرّضاً) ، فاقضى حسن الوضع في النظم ، أنّ تجاوز كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة ؛ توحياً لحسن الجوار ، ورغبة في ائتلاف المعاني مع الألفاظ ، ولتتعدل الألفاظ في الوضع ، وتتناسب في النظم ، فضلاً عن تناسب الغريب في التعبير مع الغريب من حالة نبيّ الله يعقوب (عليه السلام).

در قسمت‌های پیش به بحث‌های نظری پیرامون گزینش بهترین واژه‌ها در قرآن پرداختیم، در این فصل به چند نمونه از آیات اشاره می‌کنیم که بیان‌کننده این نکته است که هر تقدیم و تاخیر یا انتخاب واژه ، دارای حکمتی خاص است به گونه‌ای که نمی‌توان آن را جابه‌جا کرد، یا واژه‌ای را جایگزین واژه دیگر نمود. هدف از این بحث ، تبیین دقیق‌تر اولین محور از اعجاز بیانی، یعنی دقت در بیان و انتخاب بهترین واژه‌ها است، و این که در کاربرد هر واژه و حرفی، هدفی مورد نظر بوده و به کارگیری آن اتفاقی یا بی‌معنا نبوده است و همه اینها نشان‌دهنده این است که قرآن ساخته و پرداخته کسی نبوده و کلام خداوند است.

پیشی گرفتن گوش بر چشم در تعبیر قرآنی :

یکی از تعبیر دقیق قرآنی، مقدم داشتن گوش بر چشم در بسیاری از آیات است . «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»^۱ این مساله ای است که دانشمندان فیزیولوژی رازش را شناخته اند و پی برده اند که دستگاه شنوایی

پیشرفته تر، پیچیده تر، دقیق تر و تیزتر از دستگاه بینایی است. گوش انسان در مواجهه با موسیقی و نیز نغمه هایی که در هم

آمیخته اند توانایی تشخیص هر یک را دارد . آن گونه که مادر صدای گریه کودکش را از میان ازدحام صداهای گوناگون

تشخیص می دهد. ولی چشم در شلوغی سرگردان می شود و نمی تواند شخص یا شیء گمشده را دریابد . کودک در

شلوغی جمعیت از نگاه مادرش دور می شود ولی صدای کودک از گوش مادر مخفی نمی ماند. امروزه دانش، هزاران دلیل

برای برتری و خارق العادگی گوش نسبت به خارق العادگی چشم ارائه می دهد، در صورتی که این علم در عصر نزول

قرآن نبوده است. «سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»^۲.

قرآن در همه حروف و واژگانش چنان دارای نظم و استواری است که اگر کلمه یا حرفی نسبت به دیگری پس و پیش

آمده، حتما دلیلی داشته است.

آیه قصاص :

سخن خداوند در آیه : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ »^۳ نشان می دهد که در اجرای قانون قصاص ، حیات، تضمین شده است.

عرب ها عادت داشتند که بهای سهولت در حفظ قوانین مدنی و اجتماعی و کیفر ی خود، قوانین را در قالب جمله های

کوتاه ، ظریف و ادبی در بیاورند زیرا در آن زمان کتابت و تدوین در میان آنان رایج نبود و آنچه داشتند در سینه ها نگاه

می داشتند از این رو برای تدوین قوانین و حفظ بهتر آن، از شیوه های ادبی کمک می گرفتند و ادبا و فصحای عرب در کنار

قانون دانان و حکمایشان گرد می آمدند.

۱. نحل : ۷۸

۲. فصلت : ۵۳

۳. بقره : ۱۷۹

تنظیم معادلی برای آیه قصاص :

عده‌ای برای تنظیم قانون قصاص از فصیح‌ای برجسته خود کمک گرفتند تا کوتاه‌ترین و شیواترین جمله را بسازند و پس از کنکاش و نشست و برخاست‌ها بر تنظیم عبارت «القتل انفی للقتل» اتفاق نظر دادند یعنی کشتن قاتل بهترین بازدارنده از ارتکاب جنایت قتل است. ولی در این انتخاب از چند نکته غفلت ورزیدند.^۱

نکات مورد غفلت :

اول: آن که هیچ چیزی خود را نفی نمی‌کند و از لحاظ ادبی اشتباه بزرگی مرتکب شدند که قتل را نافی قتل شمردند، زیرا قتل نافی را در عبارت یاد شده مطلق آورده‌اند در صورتی که قتل اگر به عنوان قصاص انجام شود نافی قتل خواهد بود. عرب از این نکته غفلت ورزید، در حالی که خود، واضع واژه «قصاص» که به همین معنا است بود. ولی قرآن از این نکته دقیق غفلت نورزیده و واژه مناسب را در جای خود درست به کار برده است.

دوم: آن که در مقابله قصاص با حیات در آیه، فن «طبقی» به کار رفته، که جمع بین ضدین و ائتلاف میان متنافرین است، زیرا قصاص - که نوعی قتل به شمار می‌رود - ضد حیات است، که در آیه موجب حیات به شمار آمده است.

سوم: در عبارت یاد شده، افع‌ال التفضیل به کار رفته که از نظر ادبی دچار مشکل حذف مفضل علیه گردیده و موجب ابهام شده است، زیرا معلوم نیست که قتل از چه چیزی بازدارنده‌تر می‌باشد. در صورتی که در آیه این مشکل وجود نداشته و صرفاً ضمانت حیات را در قصاص به عهده گرفته است.

چهارم: از نظر ادبی، آیه قرآن جنبه ایجابی دارد و عبارت یاد شده جنبه نفی، حال آن که در سخن سنجی، به ویژه در تدوین مواد قانونی و احکام، عبارت اثباتی برتر از عبارت سلبی است.

^۱ . جلال الدین سیوطی تا بیست وجه در برتری آیه بر عبارت یاد شده برشمرده، و زمخشری عبارت ساخته آنها را به شدت نکوهش کرده و از غفلت عرب در ساختن چنین جمله پر اشکالی، تعجب کرده است همان گونه که خود عرب در موقع نزول آیه قصاص و مشاهده ظرافت آن و پی بردن به اشتباهات خود در ساختن جمله‌ای در همین معنا در شگفت شدند و خاضعانه اعتراف نمودند: ما هذا کلام البشر وانما هو کلام الله عزوجل؛ هرگز به سخن بشر نمی‌ماند و جز سخن خدا نخواهد بود.

پنجم: آن که، در به کار بردن لفظ قصاص جنبه عدالت قانونی، تداعی می‌شود که این قانون از منشا عدالت برخاسته است، در صورتی که به کار بردن لفظ قتل در عبارت یاد شده، آن هم ابتدا و بی سابقه، فاقد این خاصیت است. علاوه بر این که لفظ قتل ابتداءً حالت تنفر و انزجار را بر می‌انگیزد، برخلاف لفظ قصاص که حالت عدالت خواهی و انبساط خاطر و تشفی را ایجاب می‌کند.^۱

توصیف زمین با تعبیر «هامده» و «خاشعه»

قرآن در توصیف زمین، قبل از باران و رویدن گیاه آن، گاه واژه «هامده»^۲ یعنی مرده و گاه لفظ «خاشعه»^۳ یعنی فروتن و فرمان بردار، را به کار برده است. برخلاف تصور برخی، این تنها، گونه‌ای تنوع در تعبیر نیست، بلکه با تأملی سریع در سیاق این دو، روشن می‌شود که در صحنه نخستین، جو رستاخیز مراد بوده و هماهنگ با آن لفظ «هامده» آمده است که زمین افسرده، با آمدن باران به جنبش درآمده و آماده پروراندن سبزه و گل شده است ولی در صحنه دوم، سیاق درباره عبادت و خشوع است از این رو هماهنگ با این فضا «خاشعه» آمده و به اهتزاز و ربت بسنده شده و بر رویدن گل و گیاه تأکید نشده است.

^۱ . آیت الله معرفت، علوم قرآنی، ص ۳۷۶-۳۷۸ .

^۲ . «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نَّوَابٍ ثُمَّ مِن نَّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَتُقَرَّبَ إِلَى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَفَّى وَمِنْكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأُنتَشَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ»، حج: ۵ .

^۳ . «وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ * وَمِنَ آيَاتِهِ أَن تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنِ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، فصلت: ۳۷ - ۳۹

همه الفاظی که در این آیه: «تَاللّٰهِ تَفْتًا تَذْكُرُ يُوْسُفَ حَتّٰى تَكُوْنَ حَرَضًا»^۱ به کار رفته از جمله واژگان غریبی است که دور از استعمال است. هدف از گزینش این واژگان غریب به دلیل حکمت رعایت اقتضای حال و مقام است. افزون بر این، دارای آهنگی است که با یکدیگر تناسب و هماهنگی دارد. جلال‌الدین سیوطی در این باره می‌گوید: در این آیه، «تاء» قسم آمده که غریب‌ترین و کم‌کاربردترین حرف در مقایسه با «واو» و «باء»، بوده و از فهم عامه مردم دورتر است. همچنین غریب‌ترین صیغه افعال ناقصه آمده، در حالی که «تزال» به فهم مردم نزدیک‌تر و کاربردش نسبت به «تفتاً» بیشتر است. به علاوه الفاظ غریبی مثل واژه حرَضاً آمده که بر معنای «در شرف لبودی قرار گرفتن»، دلالت می‌کند؛ در این آیه اقتضای نیکویی وضع در نظم سخن رعایت شده است. هر لفظی با لفظی مانند خودش در غرابت در کنار هم آمده و حُسن هم‌جواری در نظر گرفته شده است. افزون بر آن، تناسب به کارگیری الفاظ غریب حالت غریت یعقوب (ع) را به ذهن متبادر می‌کند.

^۱. یوسف : ۸۵

۱. هر تقدیم و تاخیری در واژگان و حروف، دارای معنا و هدفی است که اعجاز بیانی قرآن را نشان می‌دهد.
۲. در اکثر مواردی که در قرآن گوش و چشم در کنار هم آمده، گوش بر چشم مقدم شده است . مقدم بودن گوش بر چشم به دلیل تاکید و توجهی است که بر توانایی و برتری قوه شنوایی شده است.
۳. معادلی که عرب برای آیه «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ» قرار داد، «الْقَتْلُ انْفَى لِلْقَتْلِ» می‌باشد که هرگز بار معنایی و بلاغی این آیه را ندارد . عدم برابری از نظر ادبی و بیانی معادل آیه قصاص، نشان‌دهنده راز بی‌مانندی قرآن است.
۴. در قرآن، برای توصیف زمین قبل از بارش باران، از دو تعبیر متفاوت (هامة و خاشعة) استفاده شده است که حکمت این تفاوت تعبیر، را با توجه به سیاق آیات می‌توان درک کرد.
۵. در آیه «تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا» گرچه همه واژه‌های به کار رفته غریب و کم استعمال هستند، اما با تدبر در آن می‌توان به راز این کاربردهای غریب پی برد.